اللغة العربية في المدارس الأجنبية بين الواقع والمأمول

إعداد: رنا الدقاق

ورقة مقدمة في المؤتمر الدولي للغة العربية

مقدمة

التمهيد: منطلقات البحث:

*اللغة والهوية.

*خصوصية اللغة العربية.

واقع اللغة العربية في المدارس الأجنبية وإشكالاته.

***الحلول المقترحة.**

أولاً: العملية التعليمية.

أ-الترفيه التعليمي.

ب-التطبيق العملي لدروس القراءة.

ج:دروس الأدب الإثرائية (البديعيات نموذجاً)

ثانياً: المطالعة:

أ-المطالعة في المراحل الدنيا.

ب-المطالعة في المراحل العليا.

خاتمة

اللغة العربية في المدارس الأجنبية بين الواقع والمأمول

إعداد: رنا الدقاق

مقدمة

تقوم هذه الورقة على أن المدارس الأجنبية قد أضحت واقعاً قائماً في الدول العربية، وهي تؤثر بأشكال متعددة في تنشئة أجيالنا. وتتضح هذا الآثار في أقوى صورها على اللغة العربية، إذ ينشغل الطلاب بإتقان اللغة الأجنبية، ويرون فيها رمزاً للحداثة، ويبتعدون عن تعلم لغتهم الأصلية، ويبدون نفوراً من دروسها وتبرماً من ثقافتها.

ونعني بالمدارس الأجنبية في هذا البحث، المدارس التي انتشرت في البلاد العربية مؤخراً، وهي تطبّق في تدريسها مناهج غربية أو أمريكية أو كندية وسواها، وتعتمد لغة ذلك المنهج في تدريس جميع المواد، وفي لغة التخاطب اليومية.

وتصطبغ الحياة في هذه المدارس بصبغة خاصة، حيث تتسرب عبر المنهج واللغة المستوردين من الخارج، ثقافة جديدة، تطغى على الثقافة الأصلية لأبنائنا، ونراها تتجلى في مظاهر عديدة في شخصياتهم وسلوكياتهم، وأهم هذه المظاهر الفتور في الإقبال على تعلم العربية.

والمشكلة تستوجب إمعان النظر، والعمل قدر المستطاع على تجاوزها لربط أبنائنا بلغتهم الأصلية –في هذه المدارس خاصة– وينبغي لمدرسي اللغة العربية فيها أن يضطلعوا بهذه المهمة على صعوبتها، ويفكروا في طرق مناسبة تجذب الطلاب إلى اللغة العربية، لا أن يتملكهم اليأس والاستسلام إلى تعليم اللغة العربية على أنها لغة ثانية.

وتقدم هذه الورقة التي تقوم على الملاحظة والتجربة التي امتدت لسنوات عديدة في المدارس الأجنبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وصفاً لحال العربية في هذه المدارس، ومقترحات تدعو إلى التفكير في تجاوز الأساليب التقليدية في التعليم، فتطرح البدائل أمام المربين، ليسهموا إسهاماً فعالاً في تجاوز المشكلة.

***اللغة والهوية:**

تتفق الدراسات المعنية باللغة على أنها وعاء الفكر الجمعي للأمة، والأساس الذي يقوم عليه وجودها وكيانها الذي يميّزها عن بقيّة الأمم، فيمنحها هويتُها الخاصة، وهوية الأمة مجموعة من المظاهر الفكرية والثقافية والروحية، تتجلّى وتتضحَ في النظام اللّغوي الذي يمثّل روحَ الأمة وذاتيتَها، "فاللغة تتميز بخصائص الجماعة التي تنشأ فيهم، إذ تعبر عما يشعرون، ويفكرون، ويستعملون، ويجربون..وبها تثرى خبراتهم ومعارفهم في إطار التعبير عن التوسع والتنوع والاختلاف الذي يقع في الحياة"[1]

واللّغة القومية هي من مقومات الهوية والشخصية، وفي أي حديث حول اللغة ودورها في تكوين الهويَّة المستقلة، وخلق الانتماء إلى الأمة، تطفو على السطح قضية بناء لغة الطفل التي ستكون في طليعة عناصر تكوينه ومقومات وجوده، فهي أداة التفاهم ووسيلة التواصل بينه وبين مجتمعه، وهي إلى ذلك وسيلة التفكير، والجسر الذي سيصل عبره إلى تمثُّل تاريخ أمته وثقافتها ودينها، فينشأ معتزاً بهويته منتمياً إليها.

***خصوصية اللغة العربية :**

تتميز العربية بأنها تتجاوز الوظائف الاجتماعية للغة، كالوظيفية التعبيرية والتواصلية وغيرها، لتكون ركيزةً أساسيةً من ركائز قوة هذه الأمة ووحدتها، وخاصة في نمطها الذي نعتز ببقائه وثباته، وهو العربية الفصحى، كما أوضح ذلك عدد كبير من مفكري العالم العربي، ومن بينهم المفكر العربي ساطع الحصري الذي قام بدور تاريخي وريادي في الفكر القومي العربي المعاصر في مؤلفاته في هذا الميدان، وكان يقدم وحدة اللغة على سائر روابط القومية العربية، ويواصل الكتّاب و المهتمون باللغة التأكيد على ذلك في المحافل العلمية المعنية بالعربية، فيؤكد الدكتور حسين جمعة في مؤتمر اللغة العربية والتعليم، أن "اللغة العربية جوهر الوجود العربي ووحدته"[2] ،كما أدرك المعنيون باللغة من غير العرب هذه الحقيقة وعبروا عنها مراراً، يقول الأستاذ السابق في الجامعة الأمريكية في بيروت ريشارد يوركي متحدثاً عن الدول العربية وأهمية الفصحى لديها جميعاً:

"وعلى اختلاف تلك الدول وتشعُّبها ، هناك قوة موحدة عظيمة واحدة : العربية الفصحى، هذا النمط ضِمْن العربية الذي تحمَّل وثبت لألف وخمسمائة عام خلت، نمطٌ يحترم تراثه الأدبي الهائل. لم تتغير هذه النوعية من العربية منذ عهد محمد ، وهي تراث عام يوّحد جميع العرب ، ذلك العربي الفرنسي الثقافة في المغرب، وذلك الكاتب

---

[1] اللغة العربية والتعليم –رؤية مستقبلية للتطوير –مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في : الفصل الثالث، د. حسين جمعة ص102

[2] المرجع السابق ص122

الإنجليزي التعليم في فلسطين، وذلك البدوي الذي لازال متنقلاً في الحجاز، جميعهم يتقاسمون احتراماً شبه أسطوري لفصاحة ومرونة العربية"[3]

بينما يقول المستشرق كاشيا:"الفصحى هي مفتاح تلك الكنوز الضخمة من الماضي...ثباتها لم توازه أية لغة، وفي هذا اليوم يستطيع أي عربي في المرحلة الثانوية من تعليمه إن كان مهتماً وقادراً على بذل قليل من الجهد أن يعبر إلى السجل الكامل للألف وثلاثمائة عام الماضية، هل يستطيع الإنجليزي أو الفرنسي أو الإسباني عمل ذلك؟ هل يستطيع أي شاب من تلك الجنسيات أن يقرأ تراث أمته كما كتب لفترة ما قبل ألف عام مثلاً؟"[4]

فالعربية رابطة موحدة قوية لهذه الشعوب الممتدة من المحيط إلى الخليج، وهي عماد القومية العربية، إنها قوة ثابتة وحيوية في آن معاً، تتطور دون أن يمسّ جوهرها، ودون أن يتناقض ذلك مع عنصر الثبات فيها، وهي ضرورة قومية لأنها الجسر الذي يربط أجيالنا بتراثهم ، وحضارتهم التي تقع على أكتافهم مسؤولية إظهار بهائها بل وإثرائها، إنها جزء من فكرهم وهويتهم ، فأي أزمة نعيشها في ظل ما يجري من إقصاء لهذه اللغة في العديد من مؤسساتنا التربوية وعلى رأسها المدارس الأجنبية؟؟

واقع اللغة العربية في مدارس التعليم الأجنبي وإشكالاته:

يعدّ التعليم أحد المحاور الرئيسة في تكوين الشخصية، فهو ما يصوغ عقول ونفوس أطفالنا، ولا ينبغي أن نربي أجيالنا مستخدمين لغة لم ينتموا يوماً إلى ثقافتها ومجتمعها ودينها، وإلا فإننا سنواجه قريباً أجيالاً مقطوعة الصلة بماضيها، غير واعية بعقيدتها.

إلا أن هذه الحال التي لا ينبغي لها أن تكون، صارت واقعاً نحياه ونراقب تطوراته يومياًً، يتجسد في أوضح صوره في هذه المدارس المنتشرة في البلدان العربية، حيث تحاصَر لغتنا العربية في دارها، وتزداد أجيالناً اغتراباً وبعداً عن اللغة الفصحى، والذريعة الكبرى، لهذا كله: الاندماج في المحيط العالمي والعالم المتقدم.

واستناداً إلى ملاحظةآلية العمل في تلك المدارس وموادها المقدَّمة للمتعلم، والتي تمت خلال أعوام عديدة، تبدأ منذ عام 1998حتى الآن، لاحظت أن تلك الآلية تحدث اختراقاً ثقافياً واجتماعياً بين صفوف المتعلمين ، وأن هذا الاختراق هو حصيلة تفاعل جملة من المعطيات الحافة بعملية التعليم، على رأسها البيئة المدرسية التي تعتمد نمط الحياة الغربية أو الأمريكية، أو ما يمكن أن نطلق عليه (تغريب الحياة)، والمناهج التي تستورد من الخارج، وإقحام اللغة الأجنبية في حقول العلوم الأخرى، وغيرها الكثير.

[3]أثبته الدكتور محمد راجي الزغلول في الفصل الثاني من " اللغة والتعليم" الكتاب السنوي الثاني 2000 الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية ص60 نقلاً عن: Yorky.Richard: “Practical EFL Teaching Arabic Speaking Students””.in Alatis.J.and R.Crymes (eds) The Human Factors in ESL,Washington,DC.TESOL,1971

[4]أثبته الدكتور محمد راجي الزغلول في المرجع السابق ص 59 نقلاً عن :
Cachia P.J: “The Use of the Colloquial in Modern Arabic Literature””.Journal of the American Oriental Society.Vol.87.No.1 (1976)

ويترك كل ما ذكر آثاراً عميقة على صياغة العقول و طرق التفكير، كما يؤدي إلى خلق صراع داخل الفرد لتشكيل الهوية، إذ تعمل القيم الغربية التي تنقلها المناهج الأجنبية ومدرّسيها على إضعاف الولاء للمجتمع العربي.

إلا أن أوضح تلك الآثار وأخطرها يكون على البوابة الرئيسية لفكر هذا المجتمع وثقافته، على لغته العربية وثقافة هذه اللغة.

إذ يجري تهميش اللغة العربية حتى يتسنى للمتعلم إتقان اللغة الأخرى دون تشويش يذكر من اللغة الأم، فيرسخ في ذهنه شيئاً فشيئاً أن تعلم العربية شأن كمالي، لا ينتظم الجميع، بل إنه يعني مجموعة خاصة من الناس تهوى ذلك النوع من الثقافات، أو تحرص على الالتزام بالدين الإسلامي، والبقاء على تواصل مع أحكامه.

أي أن النظرة إلى اللغة تتأسس على المنفعة والنجاعة، وتتطور لتجعل مكانة اللغة لصيقة بقدرتها الإجرائية في سوق العمل، وحين يظهر للمتعلمين أن العربية لم تعد تتربّع على عرش لغات عالم المال والأعمال، تصبح العربية في نظر الطلاب لغةَ قول فقط، وليست لغةَ فعل.

ويظهر هذا التهميش في صور متعددة تبدو مشتركة في معظم هذه المدارس، و يمكن إيجازها بالآتي:

1-تقليص عدد الساعات الدرسية للغة العربية إلى الحد الأدنى المسموح به، والاستهانة بها إلى حدّ منحها حين الحاجة لمدرسي المواد الأخرى لاستكمال مناهجهم إن حدث تقصير في تدريسها.

2-تقليص المنهج باختيار عدد محدد من الدروس، يجري فيه استبعاد النصوص الأدبية ذات المستوى اللغوي العالي نسبياً، والاكتفاء بتدريس الدروس الأكثر سهولة دون الالتفات إلى أهمية القيمة الفنية الجمالية للنصوص.

3-عدم الاعتناء باختيار المدرسين الأكفاء لهذه المهمة، إذ يكفي وجود المدرس الذي يشغل المكان، ومن المؤسف حقاً أن نرى بعض هؤلاء المدرسين يستخدمون مفردات أجنبية أثناء تدريس العربية، بحجة تقريب الفكرة إلى أذهان الطلاب الذين اعتادوا استخدام لغة أجنبية .

4-عدم الاهتمام بتوفير المصادر السمعية والمرئية التي تساعد على تعلم اللغة على نحو ممتع وحيوي، وإلقاء ذلك على عاتق المدرس الذي عليه البحث عنها بنفسه إن أراد لعمله شيئاً من التميّز.

5-تقييد حرية التعبير باللغة العربية لدى الطلاب في مرافق المدرسة، ومطالبتهم باستخدام اللغة الأجنبية فقط، وحصر استخدام العربية داخل صف اللغة العربية.

6-طباعة جميع النشرات والتعليمات التي توزع على الطلاب أو ترسل إلى الأهل باللغة الأجنبية، وقلما نجد مدرسة تعمد إلى تقديمها مترجمة إلى العربية.

7- عدم إثراء المناهج العربية بما يلزم من النشاطات التي تحبب اللغة إلى الطالب، والاكتفاء بتنفيذ المنهج المقرر دون إضافات إبداعية تذكر، ومن أسباب ذلك ضيق الوقت وقلة عدد الحصص التي سبقت الإشارة إليها.

إن هذه المواقف والممارسات وغيرها تنعكس على واقع تدريس اللغة العربية في هذه المدراس، وتبدو آثارها على مواقف الطلاب ونظرتهم السلبية من اللغة، في نفورهم من هذه المادة، وفي تبرمهم من دروسها، مما يؤدي إلى قلة عنايتهم بها، وضعفهم فيها، وعدم تقديرهم لأهميتها، مع زيادة الحماسة لاكتساب اللغة الأجنبية.

وقد كان همّ القائمين على المدارس الأجنبية أن يبلغوا هذه الغاية التي ترسّموها، وهم مدركون بأن ذلك لن يتأتى لهم إلا بحذق الصناعة والتفوق فيها، وهو شرط الظهور على الخصم، لكسب المتعلم، فعملوا على خدمة اللغة المنافسة، وقدموها بأجمل الأساليب والطرق، ومن أهمها:

1-إيلاء اللغة الأجنبية مزيداً من الاهتمام عبر تخصيص ساعات درسية متعددة.

2-العناية الفائقة بالمناهج ووسائلها السمعية والبصرية المساعدة، ودعمها على الدوام بقصص جذابة تكون جزءاً من المنهج يقوم الطالب بدراستها على مدار العام.

3-الاهتمام بالمطالعة على نحو معجب، فهم يحرصون على استضافة معارض الكتب الأجنبية المنمقة و الجذابة سنوياً، تلك الكتب التي كثيراً ما تباع مرفقة بأقراص مدمجة، وأفلام مصورة، أو مواد حقيقية مما أتى الكتاب أو القصة على ذكرها، حتى أصبح اقتناء الكتاب بالنسبة للطالب شبيهاً باقتناء لعبة محببة، وأشير هنا إلى أن معظم هذه الكتب والقصص لا تعتد كثيراً بالرسالة التربوية أو الأخلاقية، لأنها تتبنى في الغالب فكرة نطلق عليها: "القراءة للقراءة" بينما ترفض الثقافة العربية ذلك، فالنص مهما كانت قيمته في ذاته لا بد له أن يرتبط بغرض، ويجري إلى تقديم عظة أو عبرة[5].

4- الاهتمام الكبير بالنشاطات اللغوية التي تخدم عملية تعليم اللغة الأجنبية وخاصة في المراحل الدنيا.

5-تعليم جميع المواد الأخرى باللغة الأجنبية، مما يزود المتعلم بمخزون فكري ولغوي وفير.

ونحن إذ نتلمس اليوم تلك الثغرات في حياة طلابنا اللغوية والاجتماعية، ونبرز ما يواجه لغتنا في المدراس الأجنبية من تحديات ومخاطر، يتعين علينا أيضاً أن نعمل على تجاوز العقبات التي يفرضها هذا الواقع الذي يبدو عصيّاً على التغيير الكليّ في القريب العاجل، من أجل إيجاد الحلول المناسبة في ظل الظروف الراهنة، في محاولة لإنقاذ العربية من تقهقرها اليومي في هذه المدارس خاصة.

وسأقدم في هذه العجالة بعض الاقتراحات معتمدة على الخبرة في التعليم في هذه المدارس والتفاعل اليومي الذي امتد لسنوات مع هذه الفئة من المتعلمين الذي تتقاذفهم رياح المناهج المختلفة الآتية من شتى بقاع العالم، فتزاحم لغتهم في أرضها.

الحلول المقترحة:

لا يخفى على أحد أن إيجاد الحلول لهذه الظاهرة، يحتاج إلى أن ينظر فيها نظرة تكاملية منسجمة تنطلق من رؤية واضحة، وتراعي جوانب متشعبة، تقتضي الدراسة والتجريب المستمر، فالعملية شاقة وصعبة، ولا

---

[5] وسآتي على مناقشة هذه الفكرة في البحث، في الجزء الذي يتناول المطالعة .

تقتصر مهمة إنجازها على المعلم فقط، بل يبرز فيها دور الأسرة، ودورالعاملين على وضع مناهج اللغة العربية، ودور القائمين على إدارة الأقسام العربية في هذه المدارس، ويتخذ فيها دور الأدباء الذين يكتبون أدب الأطفال أهمية بالغة.

ولايتسع المجال هنا للتفصيل في ذلك كله ، لذا اخترت أن ألفت الأنظار إلى نقطتين مهمتين، هما العملية التعليمية أولاً، والمطالعة ثانياً.

أَولاً: العملية التعليمية:

إن الحاجة هي أبرز دوافع التعلم، وظاهرة اللغة تتطور في إطار الحاجة والاهتمام والوظائف التي تستند إليها، و قدرة الفرد على تمثِّل اللغة ليست مطلقة، وإنما تكون على قدر ما اضطرته الحاجة إليه، لذا فإن الطالب لن يتقن اللغة إلا إذا تولدت لديه القناعة بأنه يحتاجها في حياته الخاصة والعامة.

من هنا تتجلى الصعوبات التي يواجهها مدرسو اللغة العربية في المدارس الأجنبية، حيث تتزعزع مكانة اللغة العربية في نفس الطالب حين يتعامل يومياً مع مدرسيه وإدارته باللغة الأجنبية، ويقرأ ويكتب ويفهم جميع مقرراته بها، ثم يعلم في طورٍ تالٍ من العمر، أنّ تمكُّنه من اللغة الأجنبية هو أساس قبوله في معظم الأقسام العلمية في الجامعات مستقبلاً، أما اللغة العربية فهي غير مستعملة إلا في نطاق ضيق من المحادثة اليومية وفي تدريس عدد من المواد المهمَّشة بوضوح، ثم إن الجامعات التي تَّعِد بمستقبل يلبِّي الطموحات المادية، لاتعتمد اللغة العربية في التدريس، وهكذا تكون النتيجة الحتمية لما سبق، انصراف الطالب عن اللغة العربية، لإحساسه بعدم الحاجة الفعلية إليها، ويضعف بالتالي ولاؤه وانتماؤه لها ولثقافتها.

وقد سبق منا القول أن ليس في حدود إمكاناتنا إحداث تغيير يلغي وجود هذه المدارس، ولا أمل يلوح بأن تقوم الجهات المتنفذة بذلك- على الأقل في الوقت الحالي- ولا سبيل كذلك إلى تغيير سياساتها التي أشرنا إليها، لذا اخترنا أن نشعل شمعة خيراً من أن نلعن الظلام، ورأينا أن لابد من العمل ضمن هذه الظروف لتحقيق الهدف في تقليص تلك المساحات الفاصلة بين لغتنا وطلابنا، من خلال إقامة علاقة نفسية وروحية بينهم وبين لغتهم الأم، في محاولة لتفعيل دورها في حياتهم العقلية والشعورية.

أ-الترفيه التعليمي:

تسلك المدارس الأجنبية مسلكاً يهدف إلى جعل الطالب محباً للمدرسة متعلقاً بها، فالمدرسة ليست مكاناً للدراسة وبذل الجهد وتلقي الأوامر وتنفيذها فقط، بل هي مكان للترفيه والمتعة الحقيقية، تختفي في كثير من مواقفها التعليمية المدروسة، الحدود الفاصلة بين النظام التعليمي القائم على الانضباط وتحصيل المعرفة، وبين الترفيه ووسائله التي تقوم على الإثارة والمتعة .

وعلى ذلك، علينا أن نعمل أولاً، على المزاوجة بين التعليم والترفيه في تعليم اللغة العربية، فنحن كثيراً ما نرى القائمين على تعليم اللغة الأجنبية ينطلقون من الوظيفة تارة، ويعرضون عن ذكرها تماما تارة أخرى، فيصبح النشاط الترفيهي في نظر الطالب لا غاية له سوى الترفيه عنه، وإن كان يتضمن هدفاً محدداً للمعلم، صغر الهدف أم كبر، لكنه موجود، ولا يشترط تنبيه الطالب إليه، حتى لا ينفر منه، وأذكر هنا على سبيل المثال تعليم الحروف للصغار بطريقة الكتابة على لوح زجاجي مملوء برغوة الصابون، حيث يمرح الطالب ويقضي وقتاً ممتعاً فيما يحب، ويتعلم في الوقت نفسه طريقة رسم الحرف، أو تخصيص يوم من أيام الدوام لتعزيز تعليم أحد الحروف، حيث يجلب فيه الطلاب أي شيء يبدأ بالحرف المقصود، وقد يكون ذلك الشيء لعبة يتسلى باللعب بها مع أقرانه، أو نوعاً من الطعام يتناوله معهم، وبهذا يتعلم الطفل قائمة من المفردات دون أن يُدفع إلى ابتلاعها كجرعة من الدواء مرتين في اليوم: صباحاً في الصف ومساء في المنزل.

وأضيف إلى ذلك نشاطاً لغوياً قمتُ بتجربته وكان ممتعاً ومفيداً في آن واحد، وهو عمل قاموس مصور خاص بكل تلميذ، حيث يساعد المعلم طلابه على صنع قاموس صغير مقسم بعدد حروف الهجاء، وعند تعلم مفردة جديدة يقوم الطلاب بكتابة الكلمة في المكان المناسب لترتيبها في القاموس مع رسم بسيط معبر عن الكلمة، أو جملة تبين معناها. ويساعد القاموس في تعلم وتذكر المفردات، كما يفيد في تعلم أوليّ لمهارة استخدام القاموس.

وقد أحب التلاميذ العمل، لأنه يسمح لهم بالرسم والتلوين، وكان تصميم غلاف القاموس مهمة التلاميذ الذين أظهروا إبداعاتهم الصغيرة فيه، وكانوا فخورين بقواميسهم العربية التي تعكس شخصياتهم.

وإن كانت تلك الأنشطة تبدو لصيقة بالمراحل الدنيا فإن للترفيه طرقه في المراحل العليا، ويتصدر **الحاسوب** طرق الترفيه التعليمي، فقد أصبح أداة مهمة للمعرفة في عصرنا الحاضر، وواسطة ضرورية للتواصل على المستويين العام والخاص، ووسيلة جذابة جداً تختزل العديد من المواد الترفيهية في جهاز واحد.

إن إنشاء الموضوعات المرفقة بالصور الموضحة والرسوم الجذابة، أو إنجاز العروض التقديمية من قبل الطلاب، أو البحث عن المعلومات عبر الشبكة الإلكترونية، هو تحرر من سطوة الكتاب والدفتر والسبورة، ونفض لأسباب الجمود، وإطلاق لإبداعات الطلاب، وإثبات للطالب بأن للعربية قدرة على مواكبة العصر، وهي إلى كل ذلك أساليب تعليمية ترفيهية، يسعد الطالب بالعمل بها ويتعلم في الوقت ذاته.

ولعل من المفيد أن نوجه طلابنا إلى موضوعات ذات مساس باهتماماتهم ليقرؤوا ويبحثوا عنها على الشبكة، فمراتب الناس في العلم باللغة والإحاطة بتصاريفها، تناسب قوة الدوافع وإلحاح الحاجات تناسباً مطرداً، وسيكون من المناسب أن نوجه طالباتنا في سن المراهقة –على سبيل المثال- إلى البحث بالعربية عن طرق للمحافظة على جمال البشرة والشعر، موضحين لهن أن لدى نساء العرب في ذلك طرق مميزة، تعتمد على خبرات الجدات، وقد أثبتت جدارتها لدى الكثيرات، ونوجّه طلابنا إلى البحث عن أحدث أنواع السيارات التي طرحتها الأسواق الأوربية واليابانية، وأن معظم الشركات التي تصنع تلك السيارات تستهدف أثرياء العرب، وذلك في سبيل دفع الطلاب إلى الاطلاع على ذلك بالعربية.

إن هذه الوسيلة المحببة للمعرفة، تخدم كذلك هدفنا الرئيس، وهو حماية اللغة من التراجع، والحرص على أن تواصل أداء وظيفتها الأصلية وهي التواصل، وبما أن التواصل الحالي يعتمد على التقنيات الحديثة، فلا بد من ربط العربية بهذه التقنيات التي ارتبطت بها حياة الطالب اليوم ارتباطاً وثيقاً، وتفعيل دور المعلوماتية، والمكتبات الإلكترونية التي تسهل الرجوع السريع بل الخاطف إلى الكتب، وتلك فكرة لا بد أن تجد قبولاً جيداً في أوساط المتعلمين الذين يشترون احتياجاتهم، ويرسلون مقولاتهم وأغنياتهم وصورهم إلى بقاع الأرض في جزء من الثانية. وقد لا تتوافق مع شخصيات أغلبهم، فكرة البحث في كتاب أو معجم ورقيّ، على أن ما سبق لا يلغي دور المكتبة الورقية وسنأتي على ذكرها لاحقاً.

ومن مجالات الترفيه التعليمي الذي نسعى إليه، العمل على **توسيع البيئة الصفية** المحدودة بغرفة واحدة، والانطلاق باللغة وتعليمها إلى فضاءات أوسع، تجعل البيئة المحيطة بأسواقها وحدائقها وشوارعها ومؤسساتها الحكومية المختلفة، غرفة صفية تجري في أيٍّ منها عملية تعلُّم اللغة المستخدمة يومياً في المراسلات والتعاملات، حتى لاتبقى معرفة العربية في نظر الطلاب، مقصورة على أخص الخاصة الذين يبحثون عنها على رفوف المكتبات العتيقة، ذلك لأننا ندعو إلى التمسك بالعربية في مكان شاعت فيه غيرها شيوعاً طاغياً، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا إذا أمكننا تطويعها واستخدامها في كل الأغراض، والعمل على أن تواتي كل الحالات، فنبرز للعيان جدواها، وقدرتها على تحقيق الفهم والإفهام بالنسبة إلى مختلف الشرائح الاجتماعية.

وهنا تغدو زيارات المطاعم، واستعمال قوائم الطعام العربية، وتنظيم رحلات إلى المعارض التي تستضيف منتوجات من بلدان عربية، وتبادل الأحاديث مع المنظمين أو الباعة هناك، كل هذه وغيرها نشاطات غاية في الأهمية، فهي تعمل على ربط الطالب المغترب في مدرسته، بثقافته العربية ولغته الأم، عبر نشاطات محببة.

وأرغب هنا بالتذكير بوسيلة تعليمية ترفيهية صارت شائعة نسبياً بين المعلمين في عصرنا الحاضر، لكنني لاأرى بأساً من لفت الانتباه إلى فوائدها الجمّة التي عاينتها بنفسي من خلال التجربة.

هذه الوسيلة هي **الفيديو**، الذي تعدّ برامجه "مثيرات متنوعة في طبيعتها بصرية-سمعية – موسيقية في آن واحد"[6]

وقد أثبتت هذه الوسيلة نجاحاً كبيراً في إثارة حماسة الطالب للموضوع، وشدّ انتباهه، وتعليمه العديد من الأناشيد التي أعدت لهذا الغرض، بلغة صافية وسليمة، وهي إحدى طرق التعليم التي تراعي إلى حد كبير الفروق الفردية، إذ يندر أن تجد في الصف من لايستفيد بأي صورة من الفيديو المقدم.

وللحصول على النتائج المرجوة من هذه الوسيلة ينبغي اختيار أوقات مخصوصة، وموضوعات تثير اهتمام الطلاب، لأن هذه المتطلبات النفسية تساعد الوسيلة على تأدية وظيفتها، وتسمح لها أن تبلغَ من الطلاب مقصدَها، وأهمُّ تلك المتطلبات نشاط السامعين (االطلاب)، ووجودهم على هيئة جسدية وعقلية تسمح لهم بتمثُّل ما يُقال.

---

[6] تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية التعلمية د. محمد محمود الحيلة-كلية العلوم التربوية –دار المسيرة الطبعة الأولى 2000 عمان.ص429

وأشير هنا إلى أهمية إجراء حوار يتناول محاور المقطع المعروض، حيث يشجع المعلم طلابه على إجراء حوارهم حوله في لغة سليمة صحيحة، وذلك بمنحهم مساحة زمنية يعدون خلالها أفكارهم ويصغونها جملاً مرتبة قبل البدء بالحوار.

ويضمن التعليم بواسطة الفيديو لكل طالب "أن يتعلم حسب قدراته وسرعته الذاتية، مع إمكانية تقديم التغذية الراجعة بأشكال مختلفة، حيث يمكن للمتعلمين استخدام تسجيلات الفيديو ومراقبة أنفسهم ذاتياً في أثناء سلوك تدريسي معين، ثم مشاهدة ما تم تسجيله بواسطة الفيديو والقيام بعملية التقويم المستمر، وبذلك يتحقق الضبط الذاتي لعملية التعلم"[7] ولعل انخفاض تكاليف استخدام هذه الوسيلة، يعد أمراً مهماً مساعداً، إذ يمكن اقتناء أدواته من قبل معظم المؤسسات التربوية.

ب–التطبيق العملي لموضوعات القراءة:

ويمكن استغلال أفكار دروس القراءة والنصوص والقصص لتحويل الدرس من مجرد قراءة وفهم واستيعاب إلى درس عمليّ مشوق، يستخدم فيه الطالب مهارات حركية، فإن كان الدرس على سبيل المثال عن البيئة وتلوثها، فلم لا ينجز الطلاب رسماً موضحاً أو مجسماً لأحد مظاهر التلوث ويسجلون في أسفله معلومات يقومون بتلخيصها من الدرس، أو يجمعونها بأنفسهم من الشبكة الإلكترونية ويكتبوها بخط أيديهم أسفل الرسم أو المجسم؟؟ مع التنبه إلى ضرورة الكتابة بخط اليد وليس طباعة معلومات جاهزة أو تصويرها وإلصاقها، ثم ليقم من يستطيع منهم بتوجيه أصابع الاتهام إلى المتسببين بهذه الظاهرة، ويقترح الحلول لها، ويمكن أن ينجز هذا العمل جماعياً أو فردياً، في الصف أو في المنزل، ثم يقوم الطالب بعرض مشروعه على زملائه ويشرح لهم فكرته.

والهدف الرئيس من ذلك، أن نقتلع من أذهان طلابنا أن حصة اللغة العربية مملّة، ليس فيها سوى القراءة والكتابة.

مع التأكيد على أن ماسبق ينمي لدى الطالب مهارات لغوية مهمة كالقراءة و تنظيم الأفكار والتلخيص والتعبير الشفوي والكتابي، وهي إلى ذلك فرصة لاكتشاف المواهب في الرسم وغيرها من الأعمال الفنية، وتنمية روح الإبداع والتفكير والنقد لدى الطلاب، من خلال البحث عن أسبابها واقتراح الحلول للمشكلة المذكورة، ووسيلة لتنمية القدرة على اتخاذ القرار، إذ سيحدد الطالب طريقة عرض المشروع، وسيختار المعلومات التي يعدها الأهم.

كما تفسح المجال أمام المعلم لمراعاة الفروق الفردية، فإن نظَّم الإنجاز جماعياً في الصف، فهو يوزع المهام حسب القدرات، وإن نظَّمَ العمل فردياً، فإنّ كل طالب سيقوم بما يتيحه له مستواه التعليمي، إذ قد يكتفي طالب بكتابة بعض المفردات والمسميات شارحاً أجزاء المشروع، ويقوم الآخر بنسخ جزء من الموضوع من الكتاب كما هو دون تدخل منه، بينما يجمع الآخر معلومات جديدة تُغني الموضوع، ويقوم غيره بصياغة فقرة تامة بأسلوبه الخاص، وعلى المعلم أن يقبل كل ذلك، ويشجّع كل جهد بذل مهما كان، فالمعوَّل عليه في العملية التعليمية ليس الكمال، ولا

[7] المرجع السابق ص493

بلوغ الذروة، بل التقدم خطوة إلى الأمام، وبدلاً من أن يسأل المعلم نفسه ماالذي لايعرفه تلميذي، فليسأل: ما الذي أصبح يعرفه؟

إن تنفيذ هذه الأفكار ممكن في كل حصة قراءة مهما كان موضوعها تجريدياً ونظرياً، إذ لابد من أن يجد المعلم المبدع طريقة لتمثيل هذه الأفكار، على نحو ممتع ومشوق، ينزل اللغة العربية من برجها العاجي الذي تحتله في رأي هؤلاء الطلبة، ليجعل منها رفيقة الطالب في حياته، ويوطد العلاقة بينه وبينها حتى يأتي اليوم المأمول الذي يقول فيه: لغتي أقرب اللغات إلى نفسي.

إن ما نطالب المعلم القيام به نابع من اقتناعنا بأن "إصلاح المنهج الدراسي مهمة من مهام المدرس، إذ به يستطيع في الحدود الضيقة والمساحات المنحصرة الوعرة تحديد مطابقة المادة العلمية المدرّسة للأهداف الإجرائية".[8]

ونحن بكل ما سبق نطبق فكرة "إدارة الجودة الشاملة وهي من الأساليب التي دخلت حديثاً إلى مجال التربية، وتسعى إلى إعداد الطالب بمواصفات معينة حتى يعيش في مرحلة تتسم بغزارة المعلومات وتسارع التغيير والتقدم التكنولوجي الهائل، إن المرحلة القادمة تتطلب إنساناً ذا مواصفات معينة لاستيعابها والتعامل معها بفاعلية وتقع هذه المسؤولية على التعليم في إعداد أفراد يستطيعون القيام بذلك بكفاءة من أجل الانخراط في المنظومة العالمية الجديدة، إن إدارة الجودة الشاملة في غرفة الصف تتوقع الأفضل من أي تلميذ، وخاصة ضعيفي التحصيل، والعمل على تحقيق عملية تحسن مستمرة، وذلك من خلال ربط التعليم بالمجتمع وربط العلم بالحياة، وتنمية كل جوانب شخصية الطالب والاستفادة من كل طاقاته"[9]

وتعليم اللغة العربية لا ينبغي أن يبقى بمنأى عن ذلك، بل علينا أن نسعى –نحن المعلمين– إلى صهر طرق تعليم لغتنا في هذه البوتقة نفسها، كي لا يشعر الطالب باختلاف هذه المادة ويرسخ في ذهنه أنها غير طيّعة لاستيعاب تلك الطرق.

ج– دروس الأدب الإثرائية:(البديعيات نموذجاً)

وفي مرحلة أكثر تقدماً، يمكننا أن نضيف إلى ما سبق ما نرفع به سوية دروس اللغة، خاصة للمراحل الثانوية، وهنا تبرز أهمية توضيح فكرة مهمة لهؤلاء الطلاب، وهي تفرد العربية بطرق خاصة في الأداء، مع المفاضلة بين العربية واللغة المنافسة من خلال تعليم الطالب النظرة التحليلية التي تدقق وتعتني بالجزئيات، وتوجيه اهتمام الطالب إلى ذلك التفاعل الجميل الذي يحدث في عناصر اللغة عندما ينتظمها الكلام.

---

[8] فساد التعليم والحاجة إلى إعادة اختراعه- أ.د/شعبان حامد علي إبراهيم – المكتبة العصرية القاهرة 2009 ص154

[9] المرجع السابق ص249-250

"وهنا تؤدي النصوص الأدبية الجميلة والمثيرة قديمها وحديثها مهمة كبرى كونها تعمق فهم الناشئة بالحياة من جهة، وكونها فرعاً من فروع اللغة العربية من جهة أخرى. فالنصوص تشكيل لغوي جمالي يهذِّب النفوس ويصقل الأذواق، ويقدّم الأفكار ويسمو بالعواطف، ويمكّن الأجيال من إتقان اللغة"[10]

ولابد أن جميع المناهج تضم نصوصاً أدبية، إلا أنها في كثير من الأحيان تبدو غير مناسبة لهؤلاء الطلبة، وخاصة إن كانت تنتمي إلى العصر الجاهلي، فتبدو بعيدة كل البعد عن واقعهم واهتماماتهم ومداركهم، كما تعجز قدرتهم اللغوية عن اللحاق بشأو ذلك الأسلوب الخاص بهذه المرحلة من مراحل الأدب.

لذا أرى أن يختار المعلم من التراث الأدبي ما يتوافق مع طلابه، من النواحي الفكرية والعلمية، وتراثنا العربي حافل بأدب جميل تتوافر فيه الأسس الجمالية التي يتفق عليها معظم الدارسون، ونذكر منها على سبيل المثال المدائح النبوية التي عرفت باسم البديعيات، وهي قصائد "طويلة في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم، على بحر البسيط، وروي الميم المكسورة، يتضمن كل بيت من أبياتها نوعاً من أنواع البديع، يكون شاهداً عليه، وربما وري باسم النوع البديعي في البيت نفسه، في بعض القصائد"[11]

هذه القصائد الجميلة –التي تعدّ قصيدة البردة بذرتها الأولى- هي مادة تعليمية غنية جداً، يمكن نفض الغبار عنها وبث الروح فيها من جديد، من خلال جعلها مادة مكمّلة لمنهاجنا، نهرع إليها بين الفينة والفينة، نختار منها بعين المعلم الخبيرة، ما يناسب طلابنا، ويبدو قريباً من أذهانهم، ويكون مادة إثرائية جميلة، يتمثّل فيها عدد من الأسس الجمالية التي اعتمدها النقاد أساساً للحكم على العمل الأدبي، وأهمها أساس المنفعة والتعليم فقد "اختار بعض الناس شعراً وفضلوه لأنه مفيد في التربية والآداب"[12] ، والبديعيات قصائد تقدم قيمة عالية ، هي حب الرسول وآله والاقتداء بهم، وقد بنيت على هدف رئيس هو تعليم الفنون البلاغية عبر صياغتها شعراً، إضافة إلى أنها تحقق الأساس التاريخي في الحكم على النصوص عند بعض النقاد، وهو الحماسة للقديم، واعتباره النموذج الأفضل والأكمل مما أتى فيما بعد، –وإن كنا لانميل إلى هذا الاعتقاد– فلكل زمان رجاله، ويمكن أن يحكم بجمالها كذلك، النقاد الذين يعتمدون "الأساس الأخلاقي أو الديني، ومنشأه أن الجمال والخير لايمكن انفصالهما"[13]، وقيم الخير في التذكير بالنبي وسنته وفضيلة اتباعه، واضحة في جميع هذه القصائد.

والأدب عامة هو " لقاء متواصل بالقيم والمثل العليا في الخلق والسلوك الإنساني، وتنمية للثروة اللفظية للإفادة منها في فهم ما يقرأ ، كما يعين على الدقة في الفهم والتعبير، وهو يدفع بقارئه إلى الاستزادة منه والولع به واستقصاء فنونه مما يزيده علماً ومقدرة في الحديث والكتابة "[14]

---

[10] اللغة العربية والتعليم –مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ص109
[11] البديعيات في الأدب العربي: د. علي أبو زيد. – عالم الكتب – الطبعة الأولى- 1983.ص46
[12] الأسس الجمالية في النقد العربي-د.عز الدين إسماعيل-دار الشؤون الثقافية العامة-الطبعة الثالثة ص413
[13] المرجع السابق ص403
[14] اللغة العربية والتعليم رؤية مستقبلية للتطوير في الفصل الثالث ص109

وتحقق البديعيات بمادتها الغنية كل ما سبق، وخاصة ما يتعلق منها بالدقة في الفهم، فهي تستدعي من الطالب يقظة يدرك من خلالها المعنى الذي يرمي إليه الشاعر، والنوع البلاغي المقصود، وكيف قام بالتورية باسمه في البيت.

كما أن هناك ارتباطاً نفسياً وثيقاً بين شريحة واسعة من طلابنا وطالباتنا وبين المحتوى المعنوي لهذه القصائد، لأنه سيخاطب في نفوسهم معتقداً ثابتاً وهو الإيمان بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويعمل على استثارة عاطفة متأصلة في قلوبهم نمت لديهم منذ سني الطفولة المبكرة، وهي حبّ النبي الكريم.

ونعرض فيما يلي بضعة أبيات من بديعية أبي الوفاء العرضي، اخترناها من عموم البديعية التي يبلغ عدد أبياتها 151 بيتاً، لتناسب طلاباً في المرحلة الثانوية في مدارس التعليم الأجنبي، توخينا فيها السهولة والوضوح، آخذين في الاعتبار ثروتهم اللغوية المحدودة.

مُحَمّدٌ نَجْلُ عبدُ اللهِ ابنُ آمنةٍ   لَهُ **اطرّادُ** كمالٍ مَنْبَعُ الكَرَمِ
قَدِ اهتَدَى النّاسُ مِنْ **تَوْشيعِ** سُنّته   بالمُرْشدَين منَ الأَفْعالِ والكَلِمِ
هُداهُ كالشَّمْسِ و**التّفريقُ** بينهما   يَدُومُ ذاكَ وغابَتْ تلكَ في الظَ ُلَم
مذ **شبّهوا** وجهَهُ بالبدرِ مُكْتَمِلاً   فغابَ مِنْ خَجَلٍ وانشقَّ من أَلَمِ
تشبيهُ شيئينِ من وَجهٍ ومن شَعرٍ   منه **بشيئين** مِنْ شَمْسٍ ومِنْ ظُلَم
رؤياهُ تجلو صَدَى همِّي ومِدْحَتُه   تحلو **انْسِجاماً** بِمنثورٍ ومُنْتَظَمِ
هل مَنْ **يُماثِلُه** أو من يُناظرُه   أو مَنْ يُقارِنُهُ في المجْدِ والكَرَمِ
مُحَمَّدُ الهاشِمِي صلّوا عليه ومِنْ   أنوارِهِ **اقتبِسوا** في مَرْقَدِ الظُّلَمِ

ويبدأ الدرس بالاستماع، لما لحاسة السمع من أهمية بالغة في التلقي، فهذه "الأداة تعمل باستمرارية دونما إذن مباشر منّا، لأنه ليس لها غطاء يقفل عليها، بخلاف العين، والإنسان يسمع أكثر مما يقرأ أو يكتب، ويسمع ما يحب وما لايحب، فالأقنية مفتوحة على كل الاتجاهات"[15] وهنا سيعجز حتى الطالب الذي يبدي تململه وعدم تقبله، عن تفادي القصيدة وأثرها فيه، وأحبّذ أن يكون الاستماع بداية إلى الأبيات المعروفة المغناة من قصيدة البردة، لأنها ستعمل على جذب انتباه الطلاب من جهة، وتبث شيئاً من الروحانية والهدوء في جو الصف، وخاصة إذا تم عرضها برفقة عرض الفيديو الذي أعدّ معها وهو متوافر بكثرة على شبكة الأنترنت.

ثم يتم إلقاء الأبيات المستهدفة بالدراسة من قبل المعلم، باستخدام طبقة الصوت المناسبة، والتنغيم الصوتي ذاته الذي سبق الاستماع إليه في أبيات البردة، فلجودة الإلقاء أثر كبير في تقبل المقروء وفهمه كما هو معلوم.

[15] التفكير الكلامي د. جهاد جمل /د.عمر أحمد صديق/ أ.د فواز فتح الله الراميني دار الكتاب الجامعي –العين 2006 ص87

وعلينا أن نوجّه طلابنا إلى الاستماع الاستمتاعي قبل كل أي شيء، وهو استمتاع للمتعة والانسجام، يستجيب فيه المستمع استجابة تامة، عن رغبة وميل للموقف الذي يجري فيه الاستماع، ويحتاج هذا النوع إلى الهدوء والجلسة المريحة، ولابأس من أن يختار الطالب المكان الذي يرغب به ليجلس عليه، وفي العادة فإن صفوف المدارس الأجنبية تتوافر فيها السجادات والأرائك، التي تضفي على قاعة الدرس حميمية المنزل، وليس هناك من مانع أكاديمي أو سلوكي يحظر استخدامها في بعض المواقف التعليمية.

ثم لنشجع طلابنا على قراءة الأبيات منغمّة كذلك، فحين يكون الهدف تكوين اللغة وإغنائها "يغدو هذا الهدف أقرب منالاً وأكثر جدوى حين تتسربل الأشعار بنغمات الموسيقى العذبة"[16].

كما أن عدم إصرار المعلم على شرح كل كبيرة وصغيرة في النص، يترك المجال مفتوحاً أمام الرؤى الأخرى التي يمليها فكر الطالب وذوقه الشخصي، ويفتح الطريق أمام الإبداع الفردي ، فيتصرف كل واحد في اللغة بحسب منزلته ووعيه وحدة شعوره فيشعر بما لا يشعر به الآخرون.

وتكفي هنا الإشارة إلى النوع البلاغي وكيفية تمثيله في البيت الشعري، مع تربية الإحساس بقيمة اللفظ وأهميته في أداء المعنى على نحو موجز وسهل، بعيداً عن الحشو اللغوي والمفاهيم المجردة، التي تعدّ من معوّقات الاتصال بين المعلم والطالب، ولابد أيضاً من التذكير بالبحر الذي نظمت عليه الأبيات وإنشاد تفعيلاته أثناء إنشاد الأبيات حتى يجد الطالب نفسه يقطّع البيت صوتياً دون عناء يذكر.

والمقترح الأخير سيكون تنفيذاً لآليات التدريس التي تعتمد مبدأ الجودة الشاملة، ويدعى مبدأ الاستمرار، حيث يستوجب استمرار العملية التعليمية إلى ما بعد انتهاء الدرس، وهنا يمكننا تشجيع الطلاب على كتابة بعض الأبيات في حب الرسول ومدح صفاته، وعلينا القبول بكل ما سيأتون به مهما ضفعت قيمته الفنية في نظرنا، والتشجيع عليه ما أمكن.

إن هذا النوع من الدروس سيؤدي على الأرجح إلى نتائج ممتازة لسبب مهم ، هو أن هذا العمل لا يقوم على الإكراه، ويرى الدكتور التونجي أن العلماء المسلمين من فرس وهنود وأتراك، وكانوا يفوقون العرب أنفسهم في معرفة العربية، كان من أهم أسباب حبهم للعربية أنهم لم يجدوا العرب يكرهونهم عليها[17] لذا ينبغي أن يشرح المعلم للطالب منذ البداية أن هذا الدرس هو نوع من النشاط الإثرائي، الذي لن يكون له تقييم يؤثر في درجاته، ولن يتبعه امتحان أو اختبار، إنه درس يهدف إلى تحقيق المتعة والتّعرف إلى جانب أدبي من جوانب أدبنا العربي، وبعض أساليب البلاغة التي لم يتعرفوا إليها من قبل، وهذا يشيع الراحة في النفوس، ويقصي حالة معاداة اللغة ومعلمها.

بينما يحقق الدرس المذكور في حقيقة الأمر أهدافاً مهمة هي:

1- ربط الطالب بالأدب العربي القديم.

2- تعزيز قيمة دينية مهمة، وهي حب النبي الكريم.

---

[16] اللغة العربية والتعليم – رؤية مستقبلية للتطوير – في الفصل السادس. د.عمر الدقاق ص191

[17] انظر جماليات اللغة العربية د. محمد التونجي-دار الفكر العربي بيروت-1997ص118

3-التعرف إلى أنواع بلاغية جديدة.

4-التخفيف من عمق الهوة بين طلابنا وبين الشعر العربي الذي ينظرون إليه على أنه لغة صعبة الفهم.

كما ينمي النص المهارات الآتية:

1-مهارة الاستماع.

2- مهارة القراءة والفهم.

3- مهارة التقطيع الموسيقي للشعر، فالطالب سيتعرف البحر البسيط ووحداته الصوتية دون أن يشعر بثقل ذلك.

ثانياً : تشجيع المطالعة:

تشهد المدارس الأجنبية في ظل الزحف اللغوي الوافد عزوفاً عن قراءة ما دون وسطّر بالعربية من نتاجات فكرية أو تجارب وجدانية، حتى تزعزعت مكانة العربية لدى طوائف كثيرة من الناشئة وغيرهم، لذا كان لابد من البحث عن حل لهذه الظاهرة، ولابأس أن تكون البداية من الاعتراف بالآخر، والنظر إلى ما لديه نظرة تتفق مع حديث رسولنا الكريم :"الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق الناس بها"

فالطالب العربي في مدارس التعليم الأجنبي قارئ نهمٌ باللغة الأجنبية، يُهرع إلى معارضها ومكتباتها، ويقتني قصصاً وروايات يقبل عليها بشغف، فأيّ سرّ في ذلك الإقبال؟

أ- المطالعة في (المراحل الدنيا) :

إنّ نوعيّة المادة المقدمة للمطالعة لهؤلاء الأطفال والناشئة، تتبنى بوضوح بالغ المقولة التي أشرنا إليها سابقاً وهي:"القراءة للقراءة" خاصة في المراحل الدنيا.

وأرى أن تتبنى هذه الفكرة الناجعة آملين أن تلقى قبولاً في أوساط المثقفين والتربويين الذين يرون أن بنية النص وحدها ليست كافية ليعد من النصوص الأدبية.

إن الحرص على "الوظيفة " الوعظية أو الإرشادية أو التربوية للنصوص تدعو إلى التمسك بنوع محدد منها قد لايجد آذاناً صاغية لدى "الأجيال الرقمية" إن صح التعبير، وهذا ما لانريده، فنحن نهدف في البداية إلى ربط الطالب باللغة، وإن كان النص المقروء لن يقدم له سوى المتعة خطوة أولى ومبدئية، فإننا نعد ذلك إنجازاً عظيماً وصلنا إليه، أن جعلناه يتعلق بالكتاب العربي الذي يقرأه.

ولابد هنا من التأكيد على أهمية اختيار المادة المقدمة للقراءة، من خلال تبني رؤية جديدة لوظيفة القراءة، فالهدف هو التخطيط السليم للوصول إلى طالب قارئ بالعربية على الرغم من ثقافته الأجنبية، والمراد من القراءة التمكُّن من مهارة القراءة والفهم والتفاعل قبل أي شيء آخر، لذا لابد من دراسة المرحلة العمرية وخصائصها،

وإدراك الحاجات القرائية للطالب، مع التنبه إلى اختلاف اهتمامات الطلاب الآن ومثيرات رغبة القراءة لديهم عما كانت في السابق، فبينما كان يرى بعض التربويين على سبيل المثال أن الرسوم على الغلاف أو في داخل الكتاب ينبغي أن تبتعد عما قد يسبب الخوف عند الطفل القارئ، وأنه "من الأفضل أن تكون رسوماً تبعث على الراحة النفسية والتشويق، كالزهور والطيور والأشجار الملونة بألوان جذابة وشفافة"[18] نجد واقع الحال الآن غير ذلك، ونجد أن الكتب التي تستهوي أجيالنا الجديدة في المدارس الأجنبية خاصة، تمتلئ أغلفتها بصور غريبة بل مرعبة أحياناً، وهو ما يشكل الاستثارة الأولى لدى الطفل للقراءة، إذ تولد الرغبة لديه في القراءة..

لذا فإن هذه دعوة إلى معلمي اللغة العربية لإتاحة الفرصة أمام طلابهم لاختيار الكتب التي تستهويهم وإن بدت له منفرة بأغلفتها إلى حد ما، على ألا تحتوي ما يتنافى مع ثوابت أمتنا الدينية الفكرية بالطبع، ودعوة إلى الأدباء الذين الذين يكتبون أدب الأطفال، وإلى الناشرين، أن يدرسوا بعناية بالغة ذلك التحول الكبير في نفوس أطفالنا وشبابنا، كي يقدموا لهم ما يرغبون به، فأطفال القرن الحادي والعشرين الذين يتعاملون يومياً مع ألعاب إلكترونية بعضها في غاية القسوة – مع الأسف- وهم يتقنون استخدام الحاسوب على نحو يفوق الكبار أحياناً، ويتجولون عبر مواقع متباينة، نما إدراكهم للأمور على نحو صاروا قادرين من خلاله على التمييز بين ما هو حقيقي وماهو غير ذلك، لذا لم يعد تخيفهم الرسومات الغريبة ، بل تجتذبهم على نحو كبير، وهذا ما رأيناه ونراه يومياً.

لذا لا بد أن تحتوي أغلفة القصص المختارة للجيل الجديد على مثيرات تستطيع دفعه لاقتناء الكتاب أو قراءته.

كما يبرز بعد ذلك عنصر مهم هو طريقة التقديم، إذ لابد أن تعنى بعنصر التشويق، حتى يتحد في النص المقروء معطيان مهمان هما الفائدة والمتعة، فيكتسب الطفل قدراً كبيراً من الكلمات والعبارات والأساليب المتنوعة، ويستمتع في الوقت نفسه بطرافة المضمون وحلاوة الأسلوب الحكائي.

وجميل أن تتحدى مقدمة القصة أو الكتاب معارف الطفل وتفكيره بشكل ما، كما هو حاصل في القصص التي يقبل عليها هؤلاء الطلاب، وأعرض هنا ترجمة لمقدمة قصة من هذه القصص التي تجتذب الطفل منذ البداية وتدفعه إلى متابعة القراءة.

القصة بعنوان:"Astrosaurs"

وتتحدث عن الديناصورات، يقول الكاتب في أول صفحاتها:"هل تظن أنك تعرف الديناصورات؟؟ فكر ثانيةً.

الديناصورات كبيرة، غبية، زواحف ثقيلة الحركة.صحيح؟

كل ما تفعله الأكل، النوم، والزئير. صحيح؟

ماتت منذ ملايين السنين عندما اصطدم نجم كبير بالأرض. صحيح؟

ثم يكتب بخط كبير ومختلف:(خطأ!!)

ويتابع:

---

[18]المكتبة المدرسية تربية وتعلم-جودت علي أبو بكر-دار طويق للنشر والتوزيع ص49

الديناصورات ليست غبية، ربما كانت لديها عقول صغيرة ، إلا أنها تستخدمها جيداً، كانت لديها أفكار جيدة، وأحلام كبيرة...

إن مقدمة كهذه قد تعدّل في الطفل سلوكاً وهو العزوف عن القراءة، وهي مشكلة نواجهها كثيراً بين أوساط الطلبة حالياً، لأنها تعمد إلى أسلوب مميز في الإثارة، وهو التحدي والتشكيك في التصورات السابقة لديه أولاً، ثم تدفعه عبر عبارات بسيطة إلى الرغبة بالمعرفة، فأية أفكار كانت لدى هذه المخلوقات، وأية أحلام–على اتساع إيحاءات هذه الكلمة – راودتها؟؟

ومجمل القول في هذا المجال الحاجة إلى اختراع طرق جديدة في الكتابة الموجهة لهذا الجيل الجديد، كي نضع بين أيدي أطفالنا كتباً وقصصاً قادرة على الإمتاع والجذب، وإشباع النزوع الذي كوّنته معطيات العصر الحديث، وهو النزوع إلى كل غريب.

ب– المطالعة في المراحل العليا:

إنه لمن المحزن حقاً أن نرى الطالب العربي يتأبط كتاباً لا تقل عدد صفحاته عن 500 صفحة باللغة الأجنبية، يرافقه في الصف وفي أوقات الاستراحة، بينما يرفض تماماً قراءة كتاب من خمسين صفحة بالعربية، لماذا؟؟

في تجربة عملية كان لي حوار مطول مع إحدى طالباتي اللواتي لا يتوقفن عن القراءة بالإنجليزية، وكان الحوار حول ضرورة القراءة بالعربية وحول الكتب العربية التي تحفل بها مكتبتنا العربية، في نهاية الحوار اخترت لها كتاباً تمتحن من خلاله صدق أقوالي، أخبرتها أنني قمت بقراءة الكتاب وأنا في مثل سنها، وقد أحببته كثيراً، وكانت الطالبة في الصف الحادي عشر، وكان الكتاب "الفضيلة" للمنفلوطي، قدرت من وجهة نظري أن قصة الحب السامية والفاضلة التي تحتضنها أجواء من الطبيعة الساحرة، والأسلوب اللغوي الرائع للمنفلوطي في وصفه الدقيق لمشاعر الحب الروحاني، والفراق والشوق وغيرها لا بد أن تستميل طالبة في السابعة عشرة، ولكن ماذا كانت النتيجة، أعادت لي الطالبة الكتاب بعد يومين معتذرة عن المتابعة فيه رغم محاولتها الجادة. وقالت بأسلوب فيه من المجاملة الشيء الكثير: شكراً لك، الكتاب جميل، لكنني لن أتمكن من المتابعة فيه، لماذا؟؟ لأن أسلوبه التفصيلي المطول أشعرني بالملل.

إن ما ذكرته الطالبة حول الكتاب حقيقي، إن أحداث القصة لا تشكل ربع حجمها، بينما يُعنى الجزء المتبقي بالوصف الطويل والتفصيلي، وإن وجد ذلك لدينا قبولاً ولازال، فإن أجيالنا الآن–خاصة من يدرسون في هذه المدارس– لم تعد تندفع نحو هذا النوع من الكتب، فلا ثقافتهم الأجنبية ولا أسلوب حياتهم برمّته يتوافق وهذا النوع، إن فتياننا وفتياتنا الآن تؤاقون إلى قراءة الأحداث المتسارعة، والتطورات الغريبة والمفاجئة، ولن تلقى هذه القصص مكاناً لها في حيز اهتماماتهم.

في تجربة أخرى اخترت لطالباتي كتيبات صغيرة تضم معلومات حول أوطانهم العربية، لعلمي بأنهم-مع الأسف- لا يدرسون عنها إطلاقاً، بل يدرسون بدلاً عنها تاريخ بريطانيا وجغرافية أوربا، وكانت الكتيبات تقدم معلومات مختصرة جداً عن أهم المدن في هذه الدول، خارطتها، سكانها، إلى آخر ما هنالك.

والنتيجة: أعادوها لي بسرعة بالغة، رفضوها لأنها تقدم المعلومة على نحو فجّ ومباشر ككتاب الجغرافيا والتاريخ، وحين شرحت لهن ضرورة التعرف إلى هذه المعلومات الأساسية عن بلادهن، أجابت إحداهن واتفق معها البقية: "لاضرورة لذلك في رأيي، حين أحتاج لشيء منها سأحصل إليها بسرعة عبر الشبكة الإلكترونية".

وهنا تم الرفض لأسباب أخرى كما نرى، أولها: التقديم المباشر للمعلومة، وثانيها:عدم الحاجة إليها في رأيهن – وهذا خطأ فادح لا بد من معالجته، وثالثها:سهولة الحصول عليها بلا عناء عند الحاجة.

لذا فالمهمة صعبة للغاية، إن تقديم كتاب يحوز رضى هذه الفئة من المتعلمين لأمر في غاية الصعوبة والتعقيد إذ لابد فيه من مراعاة أمور متعددة.

1-أسلوب التقديم الذي يتضمن الغلاف والرسوم والمقدمة التي ينبغي اختيارها بعناية فائقة، تضمن استمرار الطالب في القراءة.

2-الابتعاد عن التطويل والوصف مع التركيز على الأحداث.

3-الإخراج الفني للكتاب، إلى جانب تقديمه مع قرص مدمج، وحبذا لو تم التعاون بين فنانينا ومخرجينا لتقديم القصص والروايات على شكل أفلام بل وألعاب الكترونية كما يتم ذلك في القصص الأجنبية.

4-التعاون الجاد بين المحللين النفسيين والأخصائيين الاجتماعيين وبين كتاب الأدب المقدم للطلاب، لتحليل الحاجات الحقيقية لديهم وإشباعها عن طريق القراءة.

5-عدم الإلحاح على الوظيفة الوعظية الواضحة لكل قصة أو رواية، مع ضرورة وجودها لكن دون ظهور سافر لها، فالنفس تنفر من أسلوب التلقين والإرشادات المباشرة.

6- لابد أن تحقق تلك الكتب أياً كان نوعها، الشروط العلمية اللغوية، والجودة الفنية، والتماسك البنائي، فالنهوض باللغة هو الهدف الأول والأهم من ذلك كله.

7- الاحتراز من أي تصادم بين المحتوى وبين الثقافة العربية والخصوصية المجتمعية.

وأشير هنا إلى رواية حققت انتشاراً عالمياً واسعاً، ونجاحاً باهراً على المستوى القرائي والفني، وهي رواية (هاري بوتر) المعروفة التي لاتقدم في أجزائها السبعة قيمة عظيمة، إنها عبر جميع أحداثها لا تتجاوز تعزيز قيمة الشجاعة والإصرار على الوصول إلى المراد عبر المغامرة ومساعدة الأصدقاء، لكنها حققت نجاحاً باهراً في دفع طلابنا إلى القراءة بنهم وإلى متابعة جديد أجزائها لحظة بلحظة، ولا يمكننا بالطبع إحصاء المفردات الجديدة والأساليب المتنوعة التي اكتسبوها باللغة الإنجليزية، عبر قراءتهم لهذه الرواية التي بنيت على قصة خيالية أصلاً..

فإن تمّ لطلابنا ذلك وتمكنوا من العربية عبر قصص وروايات عربية مماثلة، ستصبح عملية ربطهم بالتراث أيسر وأسهل، فنحن بذلك سنتجاوز العقبة الأولى المتمثلة بصعوبة اللغة وعدم التمكّن من فهمها بالنسبة لهم، ونبدأ بخطوات تالية ندخلهم عبرها إلى متحف التراث.

إن المهمّة الكبرى المتمثِّلة في إنتاج أدب جديد تنضح في عروقه دماء الجيل الجديد، يمكّن طلابنا من امتلاك اللغة بالطريقة التي يميلون إليها، تقع على أكتاف قطاعات خارج نطاق المدرسة، ننتظر منها رفد مدارسنا الأجنبية خاصة بأدب يستهدف هذه الفئة من المتعلمين، وريثما يتم إنشاء أدب يحمل هذه السمات، لابد لنا من العمل بجد على ما يأتي:

1-الاهتمام الكبير بمكتبة المدرسة (قسم الكتب العربية) بمحتوياتها الحالية القيّمة، إذ لابد أن تحظى بموظفين عرب مختصين بالعلوم المكتبية، على اطلاع واسع بنفائس العربية، يسهّلون عمل الطالب، ويتمكّنون من اجتذابه إلى المكتبة بالنشاطات والمسابقات المتنوعة، وهذا ما لم تحظ به معظم مدارس المناهج الأجنبية التي لاحظناها، حيث كان القائمون عليها من الأجانب الذين يعجزون بالكلية عن قراءة عنوان كتاب بالعربية.

2- التوقف عن التعويل على المؤلفات السابقة وحدها، وتوجيه الاهتمام إلى المؤلفات الحديثة في مختلف الفنون التي تحفل بها المكتبات العربية والمواقع الإلكترونية، عسى أن يجد فيها طلابنا مادة جميلة وممتعة، إذ قد صدرت عن جيل هوالأقرب إليهم فكراً وذوقاً وتجربة، من تجربة الرعيل الأول.

خاتمة:

وفي الختام، هناك الكثير ليقال عن الطرق المساعدة على تجاوز الأزمة التي تعاني منها لغتنا العربية في ظل مدارس تعليم المناهج الأجنبية، ولعل هذا البحث يكون بداية لبحث أشمل، يتناول جوانب أخرى كالمناهج الدراسية التي ينبغي أن تخصص لطلبة هذه المدارس، وإعداد المعلمين الذين عليهم الاضطلاع بهذه المسؤولية الجسيمة، عسانا نتمكن من تبصرة المعنيين بمواضع الإجادة لتعزيزها، ومواطن الإساءة لتغييرها، بما يتناسب مع مصلحة طلابنا ومصلحة لغتنا العربية.